الحياة الثقافية
صفحة تعنى بالآداب والفنون والتراث
5
السبت 2026/3/7 - العدد 10868
Saturday 7 March 2026 - No. 10868
للمراسلات: culture@alhaya.ps

مهيب البرغوثي

## هند جودة تقشر اللغة في "سقوط رداء الحرب"

في مجموعتها الجديدة، تبدوهند جودة أكثر انحيازا إلى الكتابة بوصفها شهادة، لا من موقع الشاهد البعيد، بل من قلب التجربة ذاتها. فالنصوص هنا لا تتكئ على البلاغة العالية بقدر ما تعتمد على صفاء العبارة وجرأتها، وعلى قدرتها على تفكيك المشهد اليومي في زمن الحرب، وتحويله إلى مادة شعرية نابضة. كأن الشاعرة تكتب لا لتصف ما جرى، بل لتعيد ترتيب الفوضى داخل اللغة، ولتمنح القارئ فرصة لرؤية ما لا يرى وسط الضجيج.

"سقوط رداء الحرب" ليس عنوانا مجازيا فحسب، بل مفتاح قراءة للمجموعة كلها الحرب في هذه النصوص ليست دبابة ولا بيانا سياسيا، بل حالة نفسية تتسلل إلى تفاصيل الحياة الصغيرة: إلى نوم الأطفال، إلى ذاكرة الأم، إلى الحقيبة المدرسية التي تنتظر صاحبها. من خلال هذه التفاصيل، تعيد جودة تعريف مفهوم الفقد، فلا تجعله مشهدا دراميا صاخبا، بل إحساسا يوميا مراوغا، يتآكل بصمت داخل الروح.

ما زالت الحرب تفرض شروطها تقول هند:

لم يعد مسموحا لك أن تأمن
أنت مجرد "حيوان بشري"
هل يشتاق طفلك لحقيبة الظهر والكتب؟
هل يتآكل خوفا؟
هل يبكي حزنا على معلمه المقتول؟
لن تسمعه حرب لا تجد وقتا للأطفال الباكين

### إنها تقرع طبولها!

كما أن اللافت في هذه المجموعة هو حضور الجسد الأنثوي بوصفه مساحة مقاومة. لا يظهر الجسد هنا كموضوع للرثاء أو الانكسار، بل ككيان واع يرفض أن يختزل في صورة الضحية. إنه جسد يرى، ويحب، ويتذكر، ويقاوم بطريقته الخاصة. ومن خلال هذا الحضور، تفتح الشاعرة بابا لتأمل أوسع حول علاقة المرأة بالحرب: هل تكون شاهدة فقط، أم فاعلة في إعادة تشكيل المعنى؟ جودة تميل بوضوح إلى الاحتمال الثاني، فتجعل من صوتها امتدادا لصوت جماعي، دون أن تفقد خصوصيتها الفردية.

تتسم النصوص بقصرها وكثافتها، لكنها تحمل في طياتها عالما كاملا من الإيحاءات. الجملة عند هند جودة قصيرة، لكنها مشحونة بإيقاع داخلي يجعلها أقرب إلى نبض متقطع، يعكس توتر اللحظة. تتكرر الأسئلة في أكثر من موضع، وكأن الشاعرة لا تبحث عن إجابات بقدر ما تفضح هشاشة اليقين. فالطفل الذي يشتاق إلى حقيبته، والمعلم الغائب، والإنسان الذي يختزل إلى "حيوان بشري"، كلها صور تضع القارئ أمام مرآة قاسية للواقع.

كما أن ثيمة الحب تحضر بوصفها الضد الحيوي للحرب. ليس حبا رومانسيا منفصلا عن السياق، بل قوة أخلاقية وروحية تعيد التوازن إلى المعادلة المختلة. حين تكتب الشاعرة عن استبدال "رداء الحرب" بـ "حب امرأة"، فإنها تقترح تحولا عميقا في بنية المعنى: من منطق العنف إلى منطق الرعاية، من ثقافة الإقصاء إلى ثقافة الاحتواء. إنها دعوة ضمنية إلى إعادة تعريف البطولة، بحيث لا تكون في حمل السلاح، بل في القدرة على حماية الحياة.

وتكشف المجموعة أيضا عن وعي جمالي يتقاطع مع تجارب قصيدة النثر العربية الحديثة، من حيث الاعتماد على الصورة المركزة واللغة العارية من الزخرفة. غير أن صوت هند جودة يحتفظ بخصوصيته، المتشكلة من بيئة المخيم وتجربة المنفى الداخلي والخارجي، ومن انتقالها بين غزة والقاهرة، وما يحمله ذلك من تحولات في الرؤية واللغة. هذا الامتداد الجغرافي والوجداني ينعكس في النصوص، فيمنحها أفقا عربيا يتجاوز حدود المكان الأول، دون أن يتخلى عنه.

### ماذا يعني أن تكون شاعرا في زمن الحرب؟

هذا يعني أن تعتذر،
أن تكثر من الاعتذار،
للأشجار المحترقة،
للعصافير التي بلا أعشاش،
للبيوت المسحوقة،
لشقوق طويلة في خاصرة الشوارع،
للأطفال الشاحبين قبل الموت وبعده،
ولوجه كل أم حزينة،

ضمن سلسلة "براءات" التي تصدرها منشورات المتوسط، يأتي هذا الكتاب ليؤكد انحياز الدار للأصوات الشعرية التي تراهن على التجديد والاختلاف. فالعمل، في 96 صفحة من القطع الوسط، يبدو مكثفا في حجمه، لكنه واسع في دلالاته. إنه كتاب يمكن قراءته على دفعات، كما يمكن التوقف عند كل نص بوصفه عالما مستقلا بذاته.

في المحصلة، يشكل "سقوط رداء الحرب" إضافة نوعية إلى مسار هند جودة الشعري، وإلى المشهد الثقافي الفلسطيني والعربي عموما.

إنه كتاب يعلن أن الكتابة، حتى في أكثر الأزمنة قسوة، قادرة على أن تكون فعلا للحياة، وأن تحول الألم إلى معنى، والخوف إلى سؤال، والانكسار إلى إمكانية للنهوض من جديد. وفي زمن تتراكم فيه الأخبار العاجلة، يذكرنا هذا العمل بأن الشعر ما يزال مساحة للتأمل العميق، ولإعادة اكتشاف إنسانيتنا وسط الركام.

هند جودة، شاعرة فلسطينية من مواليد مخيم البريج في غزة عام 1983. بدأت الكتابة في سن مبكر، وتنوعت تجربتها بين القصة والشعر والعمل الإذاعي وكتابة السيناريو للأفلام الوثائقية. شاركت في عدد من الأمسيات الثقافية في غزة، ونشرت نصوصها على مواقع ومنصات مختلفة، كما حصلت على جوائز محلية وعربية في القصة القصيرة خلال سنواتها الأولى. صدر لها عام 2013 ديوان "دائما يرحل أحد" في عمان، وواصلت بعده حضورها في المشهد الأدبي، إلى جانب عملها كمديرة تحرير لمجلة "28" الأدبية الثقافية. تعيش حاليا في القاهرة، وتواصل الكتابة والعمل الثقافي ضمن فضاء عربي أوسع، محافظة على صوتها الشخصي الممتد من تجربتها الأولى في غزة.

# نحن جيل هزمته الأيديولوجيا

**سليم النجار***

أصابني الشلل يوم كتابة هذا المقال بالذات ؟ تساؤلات ستبقى معلقة إلى أجل مسمى، وهواجس ستظل تنخر عقلي، ما لم اقرر البوح. ومع برودة الطقس وكثرة الأمطار لم تكن هناك من وسيلة لتنشيف ذكرياتي عن ما فهمته عن. الأيديولوجيا إلا كتابة هذه السطور. شعرت قلمي منافق! طيلة حياتي، لم أتهم بالكذب. ويوم أحسست أنني قد اضطر لذلك، ادعيت فقدان الذاكرة. أنسيت؟

لم اجب، لأنني خجلت من نفسي. حديثي عن تشكيكي في قصة الأيديولوجيا جعلني أتذكر بعض التفاصيل، فاقتنعت تمام الاقتناع أنني لا اكذب. فإن عدت أيها القارئ، إلى الكلام عن الأيديولوجيا ستجد حديثا عن زمن وهبته لهذه القناعات، والسؤال كيف لي أن أحدث من يقرأ هذه الكلمات عن ميثاق ائتماني ضمتي يربطني بالقارئ، يلزمني بالتأكيد الصدق مع نفسي أولا قبل البدء في كتابة هذا المقال.

انا انسان بسيط ومن عائلة متوسطة الحال، ولدت غريب وسأغادر الدنيا غريب، عرفت نفسي اني فلسطيني من كثرة الشتائم والاوصاف التي تؤكد أننا بعنا ارضنا وأهلي بعد ذلك هربوا إلى بلاد النفط - المال، حتى صرت شخصية من الشخصيات التي تحركت في زمن الأيديولوجيا، وسعدت لهذا الزمان. وبعد وطدت علاقتي بها لجأت للإجابات الجاهزة، بعد أن لعبت الأيديولوجيا البوصلة لأفكاري، استوعبت كل الظروف المناخية القاسية، وعاينت حالة المعيشة المزرية، لمست البؤس إلى حين، والفقر حينا آخر، والأيديولوجيا اسعدتني بالجواب لا بد من أن تعيش هذه الحالات، وفرحت أكثر من رؤيتها الرائعة للكون ونظرتها العميقة للأشياء؟

اذكر جيدا أن الوقت كان ما قبل الغروب بقليل. رامت الشمس نحو المغيب، وكادت أن تغطس غطستها اليومية، وقتها أخبرني والدي رحمه اللّه كيف ضاعت فلسطين؟ وأضاف أثناء الخروج من قريتنا صبارين لماذا هرب بعض الرجال تاركين زوجاتهم واولادهم من قلة الطعام، فضلوا الهروب، حتى لايروا هذا المشهد من جوع وخوف! لم انبس ببنت شفة، وقتها، كنت مستمع غير جيد. لأن الأيديولوجيا فاجاتني كعادتها بكلماتها الساحرة ورؤيتها الخلابة، فوجدتها ساحرة بتفسير هزيمتنا. وابعدت فرضية الخرف، وصرت مستعدا لقبول اي فرضية تطرحها الأيديولوجيا.

سلكت طريقا مليئا بالكلمات، وقتها كنت في الجهة المعاكسة لمجتمعي، تناسلت الاستعارات التي جعلتني أنني أمام مجتمع جاهل، لا يعرف الوصول للمعاني المختبئة وراء كلمات الأيديولوجيا.

بعد ساعات من الكتابة يئست من إمكانية استخراج أفكار جديدة من قلمي اللعين، جال بخاطري ولم اجرأ طرحه الا الآن : ( ولم علي الآن خلع الأيديولوجيا ؟)

رغم أنني كنت سأنهج نهجها، حتى وإن لم تأمرني.

---

* صحفي وكاتب فلسطيني يعيش في الأردن

# محمود شقير .. "أمي في زمن التحولات"

**جمال أسدي**

بعد قصة سونيا سليمان "التنين"، حيث يظهر العنف في صورة مجازية وحشية تهدد باحتلال الخيال الأخلاقي ذاته، تأتي قصة محمود شقير "أمي في زمن التحولات" لتؤدي حركة تهدئة مقصودة على مستوى البناء العام للمجموعة. ويعد هذا الانتقال من أذكى اختيارات المحررة في ترتيب النصوص. فبعد المرور عبر الأسطورة، والخوف، وإغواء القوة، تعود المجموعة إلى نسيج الحياة اليومية العارية من الزخرفة. يتراجع الوحش، وتظهر الأم: لا بوصفها رمزا، بل بوصفها حضورا. ينتمي سرد شقير إلى واقعية هادئة متعمدة، تتمحور حول شخصية أم تتشكل حياتها من خلال الروتين اليومي، والإيماءات المنزلية، والتكيفات التدريجية مع التحولات السياسية. لا مشهدية هنا، ولا استعراض مباشر للعنف. يظهر التاريخ على نحو غير مباشر، متسللا عبر إيقاع البيت، ومن خلال التعديلات الصغيرة التي يتطلبها الاستمرار. الأم لا تروي التاريخ، بل تعيشه. فالتغير لا يقاس بالتصريحات، بل بتحول العادات، والنبرات، والتوقعات - بما صار ينبغي فعله على نحو مختلف، وبما لم يعد ممكنا افتراضه.

تغدو الأم في هذه القصة مستودعا للاستمرارية التاريخية، حاملة الذاكرة لا في صورة شهادة صريحة، بل في صورة ممارسة جسدية يومية. فهي تعرف أين توضع الأشياء، وكيف تحضر الوجبات، وكيف يحمى الأطفال من معرفة قد تكون أثقل من احتمالهم. وتصر واقعية شقير على أن الكارثة لا تقطع الحياة فقط في لحظات الانفجار، بل تتسرب إلى اليومي، مطالبة بتكيفات دائمة، غالبا ما تكون غير مرئية. وبهذا المعنى، تكمل القصة مساهمات سابقة في المجموعة، عبر إظهار كيف تستمر النكبة لا بوصفها صدمة أو منفى فقط، بل بوصفها إعادة تنظيم مستمرة للحياة المنزلية. يتقاطع هذا التركيز على اليومي بعمق مع المشروع السردي الأوسع لمحمود شقير، المعروف بعنايته بسكان القدس العاديين وباستراتيجياتهم في الصمود الهادئ. وتستدعي شخصية الأم هنا ما وصفه بيير نورا بـ "بيئات الذاكرة"، أي تلك الفضاءات التي تصان فيها الذاكرة عبر الاستمرارية المعاشة لا عبر النصب التذكارية. فالبيت يصبح مثل هذه البيئة: فضاء تحفظ فيه الذاكرة بالتكرار والرعاية، لا بالأرشفة أو الشعارات. ضمن منطق المجموعة الداخلي، تؤدي "أمي في زمن التحولات" دور ثقل موازن. فبعد الشتات بلا أرض (ميرواني)، والاستعارة بلا ملاذ (سليمان)، والسهر بلا راحة (جابر)، يقدم شقير استمرارية بلا أوهام. لا تتغلب الأم على التاريخ، ولا تحوله إلى أسطورة. إنها تتكيف معه. ويؤكد هذا الاختيار التحريري أطروحة مركزية في الكتاب كله: أن البقاء ليس دائما بطوليا، وأن المقاومة ليست دائما صاخبة؛ ففي كثير من الأحيان، تتجسد ببساطة في مواصلة الحياة.

على مستوى الأدب العالمي، يجد نهج شقير قرابة واضحة مع كتاب جعلوا الكارثة التاريخية تعاش داخل واقعية منزلية لا ضمن سرديات ملحمية. فرواية ناتاليا غينزبورغ "معجم العائلة" تتعامل مع الاضطراب السياسي بوصفه شيئا يمتص في لغة العائلة وروتينها، لا بوصفه مشهدا دراميا. وبالمثل، تظهر لحظات بريمو ليفي الهادئة- المتعلقة بالعادات والعمل والإيماءات الصغيرة- كيف تصان الكرامة عبر الانتباه إلى العادي. تنتمي أم شقير إلى هذا النسب الأدبي: شخصية تستمد قوتها من الاستمرار لا من المواجهة.

فلسفيا، تتقاطع القصة مع تمييز حنة أرندت بين الفعل السياسي وعمليات الحياة. فحين يتعطل الفعل تحت وطأة العنف، تستمر عمليات الحياة - الرعاية، والتربية، والتغذية - وغالبا ما تتحملها النساء على نحو غير متكافئ. كما تتجاوب القصة مع أخلاقيات المسؤولية عند إيمانويل ليفيناس: فتوجه الأم نحو الآخر، واهتمامها بالأبناء والبيت، يجسدان موقفا أخلاقيا قائما على الرعاية لا على التجريد. وتكمن دلالة هذه الرعاية سياسيا في عنادها على الاستمرار.

ما يمنح "أمي في زمن التحولات" قوتها الخاصة هو رفضها للنوستالجيا والتمجيد العاطفي. فالأم ليست مثالية ولا أسطورية؛ إنها أحيانا متعبة، وأحيانا حازمة، وأحيانا صامتة. ذاكرتها عملية لا حنينية. ومن خلال هذا التقديم، يقاوم شقير إغراء تحويل الشخصية الأمومية إلى رمز قومي، مصرا على خصوصيتها - ومن خلالها، على آلاف النساء المجهولات اللواتي حملن التاريخ إلى الأمام دون اعتراف. بوضع القصة في هذا الموضع المتأخر من المجموعة، تؤدي وظيفة تركيبية هادئة. فهي تذكر القارئ بأن الحياة تستمر بعد الوحوش، والخرائط، وليالي السهر، والبحار الطافية - تستمر في المطابخ وغرف الجلوس. فالنكبات الكبرى تعاش لا فقط عبر المقاومة والتذكر، بل عبر أفعال يومية صغيرة من التكيف. وبهذا، ترسخ مساهمة شقير كتاب في واقعية حميمة للتجربة المعاشة، مؤكدة أن التاريخ لا يصنع فقط في لحظات الانكسار، بل يصان في العمل الصبور للرعاية.

# "عين الزيتون".. روح مقاومة ومأساة لا تدوم

**فيصل دراج**

يقف قارئ الأديب محمد علي طه، الفلسطيني الذي لم يغادر وطنه، أمام أنواع كتابية تتضمن الرواية والمسرحية والقصة القصيرة والمقالة وفسحة مريحة "لأدب الأطفال". يعود هذا التعدد إلى شغف علي طه بوطنه وسعيه إلى معانقة وجوهه جميعا بقدر ما يعود إلى قدرته على تملك الكتابة في أنواعها جميعا. لكأن في وطنه ما يفتنه وفي الكتابة ما يقرر فتنة أخرى، وفي العلاقتين ما يوحد بين حب الوطن ووظيفة الكتابة معا.

تتشارك العلاقتان صفة "الإخلاص"، إذ الكتابة لا تختصر في رنين الحروف أو في "نحو" لا اعوجاج فيه، لكنها فعل له وظيفة تترجم النقد التحريضي والوصف والتعليم. أما الصفة الثانية فتحتضن "الوطن" في مراياه المتعددة التي تعكس: الهوية والأمن والاستقرار، بلغة الراحل الكريم د. إحسان عباس، وذلك الجمال الروحي المشبع بالدفء الذي يقول: "لو جنة الخلد عدن، لا شيء يعدل الوطن".

حاول علي طه في روايته الأخيرة "عين الزيتون" (الدار الأهلية/ الطبعة الأولى، 2025) النفاذ إلى جمال الوطن الآسر، الذي يأخذ أبعادا لا تنتهي في أزمنة التهديد والفقدان، إذ في التهديد ما يقلق الروح وفي الفقدان ما يجهز عليها- ولو بقدر. عاش الفلسطينيون في أزمنتهم وأمكنتهم المختلفة أشكال الأسى في مرايا المنافي والأرض المصادرة والمخيمات التي يجتاحها المجهول، وعاشوا ما قوض راحتهم في حنين متوالد، لا ينطفئ ولا يمكن السيطرة عليه. في روايته هذه، وهي برأيي من أفضل ما كتب فلسطينيا في السنوات الأخيرة، سعى محمد علي طه إلى إنطاق "الوطن المصادر"، وإلى تجسيد الحنين وتوصيف جمال الوطن "السليب"، إلى ترويض ما لا يمكن وصفه إلا صدفة، أو بجهد جهيد. فجمال العزيز يتكشف في لحظة "اختلاسه"، وحين يفتقده الإنسان ويشعر أنه لن يعود. استذكر طه في "عين الزيتون" جماليات وطنه بعيون مختلفة: عينا الصبي الذي يلهو في حقول مزهرة، وعينا الشاب الذي يلاحق مستثارا أجساد الصبايا يملأن جرارهن من ينابيع القرى، وعينا الكهل يستدعي دفء عشقه الأول، وذاكرة الشيخ المشبعة بحنين الحكايات المختلطة، ووعي الفلسطيني الكاره للعنف الصهيوني واغتصاب الأرض، الحالم بيوم تحرر من آثار المعتدي الكريه. سرد تفاصيل ما نطقت به الأرض وحكاه الفلاحون الملتصقون بتراثهم. لكأن روح طه من روح فلسطين التي رعته في الفصول جميعها ولا تزال تأخذ بيده بكرم كبير. سار مع أطياف وطنه وزامنها إلى حدود العشق. أخلص، في النهاية، لقيم وطنية عميقة وآمن بكرامة وطن جدير بالدفاع عنه. أقام إخلاصه على دلالة فلسطين التي ينعقد فيها جمال قديم وعشق لا ينطفئ. قرأ الأديب وطنه بمجاز الجمال الكريم وتفاؤل الروح الصادقة، واشتق منهما ماضيا كساه الضوء ومستقبلا يصحح خطاه إن أخطأ السير. انتهى إلى ما يمكن أن يدعى: جمالية الكتابة الوطنية، التي تكمل فيها جمالية الكتابة أناشيد الموضوع الذي تصوغه.

صاغ طه روايته من مفارقات متوالدة، احتشد فيها الوطن والمنفى، الحرية والاحتلال، الحب والكراهية والجميل والقبيح، وفلسطين كما كانت، وما أصبحت، وما يجب أن تكون عليه: "بوابة للسماء"، وأرضا مورقة تقاوم الشر الصهيوني وتبقى "أرضا مباركة"، احتفى بها أجداد طيبون ذات مرة، ووقعت عليها مجازر ارتكبها "شعب اللّه المختار"، الكاره للبراءة والخلق الإلهي وجماليات النقاء.

أقام محمد علي طه روايته الباذخة الجمال على مجازر الحنين المضيء، إذ في أرض فلسطين، كما كانت، ما يوقظ الحنين، وإذ الحنين إلى "أرض أورق فيها الحجر" مكسو بالأسى وشقاء الروح وإذ في لغة طه، كما في أسلوبه، "عتاب على القدر" الذي عبث بما شاء، وعتاب أشد مرارة على أهلها الذين لم يحسنوا الدفاع عنها، كيف استطاع الشر أن يصل إلى أرض خيرة؟ كيف أضاع أهلها ما يجب الحفاظ عليها؟.

أعطى طه وهو يلامس "أطلالا من فلسطين" لغة تقترب من الفرادة وأنتج أسلوبا ينكر التشكي ويستنهض "ما كان جميلا وغفا". ولامس "عينه"، وعين الشيء هي روحه، هي ما يبصر به، والبصيرة عناق المعنى بلا خلل. وما بصيرة محمد علي طه إلا اللغة التي عبرت عن جمال فلسطين، كما وعته الروح الصادقة، بعيدا عن أسلوب يخلط بين الكلمات المتراصفة والنثر الذي يتجاوز الكلمات إلى رحاب الصورة الناطقة والإشارة الفصيحة المتعددة الطبقات، وينشر جمال فلسطين بعفوية عاشها أهلها لا تعترف باللغة المصطنعة الغليظة.

ولعل في عناوين ما كتب طه، أكان رواية أم قصة قصيرة، ما يشير إلى وطن غير جدير بالنسيان، وإلى فلسطيني إن تناسى الوطن، أو نسيه، فقد كيانه، ذلك أن كيان الفلسطيني من استذكاره لوطن يستعصي على النسيان، ولا يليق به نسيان "يهين الفلسطيني" إن وقع عليه. كان الراحل الكريم جبرا إبراهيم جبرا يرد على مستخفين بالفلسطينيين: "فليعلموا أننا كنا أكثر منهم ثقافة وذكاء وكرما وشجاعة...". رفع جبرا راية الذاكرة وأعلن أن من لا ذاكرة له لا كرامة له. نعثر في كتابة طه على جمالية مقاتلة، مجلاها روايته "عين الزيتون"، التي تجمع بين المتخيل الرحيب والقول السياسي المضيء والماضي والحاضر والوجع الإنساني والسخرية السوداء ومنظور بلاغي ينفذ إلى جوهر الوجود، يقرأ جغرافيا فلسطين في مفرداتها كلها: قديتا وبيريا وصفورية وصفد وحيفا وعكا وميرون والسموعي.... .

لكأن فلسطين قائمة بصيغة المفرد والجمع تنتسب إلى ما خلق اللّه بكرم على مبعدة من غطرسة صهيونية أوجزها بن غوريون في قوله: "نحن خلقنا اللّه ليخدمنا وليس لنخدمه". غطرسة صهيونية تغتصب الأشياء واللغة و"أرض فلسطين" ومعنى التاريخ، ترفع راية الشر وتدعي احتكار الخير بعد تدمير معناه وتحويله إلى رصاصات تختزل إرادة الكون إلى جرائم "شعب اللّه المختار". في لغة محمد علي طه ما يترجم دلالة فلسطين كما شاءها اللّه وبناها الفلسطينيون. حين وصف قريته البعيدة، أو ما يشبهها، يربطها بالزيتون الذي هو شجرة مقدسة ورد ذكرها في القرآن الكريم، يستذكر جماليات "عين الزيتون"، أي "عين المقدس" الذي يجلو الرؤيا ويسعف الرؤية ويوحد بين الرؤية والرؤيا ويخلق مدنا يحرص عليها أهلها.

يعود طه إلى قرية عين الزيتون فيقول: "كلما شاهدت الماء تذكرت عين الزيتون ذات الماء البارد في أيام الصيف القائظة". وبقدر جمالية عين آيتها الماء الزلال، يتراءى جفاف الروح اليهودية المحملة بما يقبض الروح، كأن نقرأ: "كانت تلك أيام الحاكم العسكري البغيض، الذي كان حاكما مطلقا يفعل ما يشاء مع المواطنين العرب. كان يعتقل من يشاء ويسجن من يشاء ويغرب من يشاء. والتغريب يا محترم هو أن يلقي القبض على كل معارض أو يحتج ويجري إبعاده إلى مكان ناء". لا تخبر هذه الأفعال عن رخاوة الإنسان الفلسطيني وجبنه، بل عن عنف صهيوني مطلق السراح جسده في الرواية "الخواجة مردخاي"، الذي قلب أوضاع الفلسطينيين، بما في ذلك حروف اللغة ولفظ الأسماء، (يلفظ الحاء خاء والراء غينا والعين همزة، ويصير حسن إلى خسن).

ليس قلب الأسماء وتبديل الحروف إلا صورة ساخرة للإرهاب الصهيوني المعمم، الذي اقتلع الفلسطينيين من أرضهم وسطا على مقدساتهم، وأسبغ على "اليهودي" هيبة لم تكن له، وعلى الفلسطيني انكسارا وذلا لم يكونا من صفاته. جعل محمد علي طه من "عين الزيتون" مرآة للقرى الفلسطينية، وصير "عين الزيتون" مكانا من ألفة تكسوها الظلال والأطيار. فقد كانت وطنا وصورة عن الوطن تتداول الذاكرة وقائعه الكبيرة، فنقرأ: "في الأول من أيار 1948 هاجمت القوات اليهودية قريتي بيريا وعين الزيتون المتجاورتين تمهيدا لاحتلال صفد"، وأحدثت فيهما مجزرة. يقول السارد: "ما تصورت أن يطردونا من عين الزيتون"، معترفا بالهزيمة الذاتية وتفوق الآخر.

شكلان صاغ بهما طه جمال القرية الفلسطينية المندثرة. شكلها كما كانت قبل أن يسطو الصهاينة عليها، نقية بريئة تمتد في الطبيعة الجميلة ويمتد الجمال الطبيعي فيها، وأحوال الفلسطيني بعد أن عاش أسى قريته واستشهد على أسوارها وسقطت معه صورها في الفصول الأربعة: "سقطت بيادر القمح النورسي وسقطت أشجار التين البقراطي والغزالي والموازي... سقطت عرائش الدوالي وسقطت جفنات الكروم وسقط القمر من فوق عين الزيتون وسقط الحب. سقط كل شيء...".

يكمل الكاتب التأسي على الذين أجبروا على الرحيل من وطنهم وفارقوا أحبابهم قائلا: سألت الواقف أمامي هل أنت من سحماتا؟ أجاب: يا خيا ما بقي حدا من سحماتا، ولا من الدير القاسي، ولا من الصفصاف. شملوا جيراننا شملوا، أي ذهبوا شمالا وجنوبا ووزعهم اللجوء على الجهات الأربع واحتفظوا بأرض فلسطين في ذاكرة يعتريها الحزن حتى الآن.

قدم طه صورة عن الوطن والوفاء والتاريخ وحزن المغلوب وشوقا إلى وطن ينتظر عودة أهله إليه.